ثانياً – الحالة النفسية للشعوب :

فقد عاشت شعوب تلك الفترة تحارب مريرة عديدة كحرب المائة عام والانشقاق الديني ، وتقدم الأتراك في شرقي أوربة ، وكذلك الطاعون الأسود ، حيث رأوا في كل ما حدث عقاباً من الله ، مما أثار في نفوسهم القلق ، وكانوا بحاجة لِخدْمات دينية أكثر عمقاً ؛ لأن الكنيسة لم يكن باستطاعتها أن تريح نفوسهم فبدؤوا في القرن الخامس عشر بتكوين (أخوات) تجمع المؤمنين الحريصين على خلاصهم الأبدي . بالإضافة إلى أن المؤمنين في القرن السادس عشر لم يعودوا يفهمون عقيدة الكنيسة ومبادئها وأخذوا يَصْبون لعبادة أكثر بساطة في مظاهرها الخارجية[١٠] .

ثالثاً - الحركة الإنسانية وشيوع روح النقد :

إن حدوث اليقظة الفكرية التي انكبت على القديم للتنقيب عن تراثه من جهة وتفهم هذا التراث من جهة أخرى كان في مقدمة العوامل التي نبهت الأوربيين إلى ضرورة إصلاح الكنيسة الكاثوليكية[١١] . وكان شعور روح النقد وظهور شخصية الفرد من أهم نتائج النهضة الأوربية . فقد تحرر المفكرون من القيود التي كانت تفرضها الكنيسة الكاثوليكية على حرية الفكر والبحث العلمي وسلطوا أنوار العقل على جميع الأنظمة السائدة في المجتمع وفي مقدمتها الأنظمة الدينية . فعادة الإنسانيين في نقد النصوص القديمة دفعهم إلى فحص (الكتاب المقدس) بعمق وإلى حذف ما أضيف إليه وإبراز النص الأصلي بين سكان أوربة الذين درسوا النص الأصلي ، وتمنوا العودة إلى بساطة الكنيسة الأولى . وقد نبه الإنسانيون الأذهان إلى بُعد الكنيسة عن قيم المسيحية الأولى من خلال النقد الذي وجهوه إلى البابا ورجال الدين في كتاباتهم ، حيث وازنوا بين حالة الكنيسة الأولى كما أرادتها المسيحية والكنيسة في عصرهم[١٢] .

الإصلاح الديني في ألمانية (مارتن لوثر) :

ظهر مارتن لوثر في ألمانية ، حيث كانت مفاسد الكنيسة صارخة أكثر من الدول الأوربية الأخرى . وقد تفجرت أزمة عام ١٥١٧ م بسبب قضية صكوك

الغفران . ولد مارتن لوثر في قرية ايزلبين Eisleben في سكسونية عام ١٤٨٣ م قضى طفولته في مانزفلد Mansfeld حيث كان والده يشتغل في التعدين هناك[١٣] كان لوثر لامعاً في دراسته الجامعية في جامعة ايرفورت Erfurt . وقد وجهه والده لدراسة القانون ، إلا أن اهتمامه الحقيقي انصب في مجال الفلسفة والدين ، فقد انخرط في سلك الرهبنة ، وانتسب إلى دير الأوغسطين في ايرفورت[١٤] . ثم دخل دير ايرفورت عام ١٥٠٥ م حيث قضى السنة الأولى مع التلاميذ المبتدئين في التزهب منكباً على دراسته بكل نشاط . عاش ببساطة يأكل طعاماً قليلاً ويرتدي ملابس بسيطة ويعمل في النهار ويصلي في الليل . وقد استمر في دراساته اللاهوتية حيث وجه عناية خاصة لدراسة علماء اللاهوت . وقد نقل مارتن لوثر مع عدد من رفاقه الرهبان عام ١٥٠٨ م من دير ايرفورت إلى دير فيتنبرغ Wittenberg للخدمة في جامعاتها الصغيرة وقام بتدريس الفلسفة هناك أي أنه عاد إلى ديره بعد عدة أشهر . وعند وقوع شحار في دير لوثر في عام ١٥١١ م تم اختيار مارتن لوثر من قبل الرهبان للذهاب إلى روما والتحدث باسمهم في بلاط البابا . وقد خلفت رحلته إلى روما في نفسه صدمة مريرة ، فقد رأى بعينه الفساد الذي انتشر هناك بين رجال الدين الكبار ورأى البابا الذي كان يفضل السير مع جنوده في شوارع روما على تلاوة الصلاة . وعند عودته إلى ألمانية تابع دراساته اللاهوتية وتدريسه في جامعة فتنبيرغ ، التي حصل فيها على إجازة الدكتوراه في علم اللاهوت في عام ١٥١٢ م[١٥] . وقد توصل مارتن لوثر إلى عقيدة التبرير بالإيمان Justification by Faith ، التي تتلخص بأن الإيمان وحده قادر على إنقاذ الإنسان ، أما الممارسة الدينية فلا تفيد في شيء . وإيمان الإنسان يكشف له الخطيئة والثقة بخلاصة . إن شيئاً واحداً له قيمته ، هو التواصل بين الله والمؤمن ، لذا يجب أن لا يرافق العبادة أية مظاهر ما عدا التراتيل ، والقراءة المشتركة للكتاب المقدس، والإبقاء على سرّين من الأسرار المقدسة السبعة وهما العقيدة والمناولة . وتكون المناولة بالخبز والنبيذ ولم يبق إلا ما كان قد قرره المسيح ، وألغى عزوبية رجال الدين ورفض تعليق الصور في الكنائس ، ولم يسمح إلا بالصليب ، كما رفض تقديس العذراء والقديسين[١٦] .

قضية صكوك الغفران :

نشأت صكوك الغفران عن فكرة دينية روج لها رجال الدين . محتوى هذه الفكرة هو أنَّ الإنسان إذا ارتكب خطيئة ، ثم ندم وتاب واعترف بها أمام أحد القساوسة فإنه لا يدخل الجنة مباشرة بل يظل فترة من الزمن في المطهر Le Porgatoire ، حيث يلقى نوعاً من العذاب حتى يتطهر من الذنوب التي اقترفها . ويمكن تخفيف العذاب بالحج إلى كنائس معينة في روما والصلاة فيها وزيارة قبور الرسل . ثم توسعت فكرة العذاب في المطهر ، وأجازت تقديم الهبات المالية بشراء صكوك الغفران بدلاً من تحمل مشقة الحج إلى روما . وكان بابوات روما يرسلون ممثلين لهم إلى مختلف الدول الأوربية لبيع صكوك الغفران وبذلك وجدت البابوية مورداً مالياً غزيراً . وقد تم التوسع في عمليات توزيع هذه الصكوك عندما امتد تأثيرها على الموتى وبذلك يُغفر للميت كل ذنوبه ويدخل الجنة ، بل إن صكوك الغفران قد تجاوزت الحد المعقول فأصبحت تباع بالجملة ومقدماً لغفران جميع الخطايا التي ارتكبها الإنسان سابقاً أو التي سيرتكبها في المستقبل ويعد ذلك تحريضاً مكشوفاً على ارتكاب الذنوب والخطايا[١٧] . قرر البابا ليو العاشر بيع صكوك الغفران[١٨] للمسيحيين كي يكمل كنيسة القديس بطرس في روما وليستفيد البيز براندنبورغ من جزء منها ، وذلك لتسديد ديونه لدى المصرفي اليهودي يعقوب فوغر ، وهدفه الحصول على أسقفية ماينس . وقد جاء إلى فتينبيرغ في عام ١٩١٧ م الراهب حنا تتزل John Tetzel لبيع صكوك الغفران . وقد انتهز لوثر فرصة اجتماع الناس عند كنيسة فتنبرغ للاحتفال السنوي بعيد الشهداء وهو أحد أعياد الكنيسة الكاثوليكية في أول تشرين الثاني ، فقام بإلصاق منشور مؤلف من خمس وستين حجة ضد صكوك الغفران على باب الكنيسة في ٣١ تشرين الأول عام ١٥١٧ م وأهم ما جاء في المنشور من حجج[١٩] ، هو أن البابا عندما أعطي مفاتيح ملكوت السماوات فإنه مُنح القدرة على الإعتاق من التأديبات الكنسية فقط ، إذ إن كنز الفضائل هو رحمة الله وإن صك الغفران لا يمحي الذنوب ولا يستطيع البابا نفسه فعل ذلك . كما أن صك الغفران لا يخلص الإنسان من العقوبة والله وحده يحتفظ بذلك وأن المسيحي الذي يتوب توبة صادقة ينال المغفرة من الله بعيداً عن صكوك الغفران . وقد شاع خبر هذه الحجج في

ألمانية بأكملها خلال أسبوعين . وقد طُلب البابا مارتن لوثر إلى روما فرفض الذهاب فأرسل له البابا رسالة طلب إليه فيها أن يتراجع عن نقده في عام ١٥٢٠م فأحرقها علناً مما دفع البابا إلى حرمانه . وخلال تلك الفترة قام بنشر كتابه (في حرية المسيحي) حيث عمق مذهبه في الخلاص[٢٠] . وقد خاطب البابا فيه قائلاً : لقد أظهرت احتقاري ، وانتابني الغضب ، لأن الشعب المسيحي يخدع تحت ستار إسمك واسم الكنيسة المسيحية ، ولهذا قاومت وسأظل أقاوم ما وجد في عرق ينبض بروح الإيمان . وأما كتابه (أسر بابل) باللغة اللاتينية فقد وجهه إلى رجال الفقه الديني . أوضح فيه ضعف البابوية وتدهور أخلاق رجال الدين وأخيراً منشور (إلى نبلاء الأمة الألمانية المسيحيين) وهو نداء وجهه باللغة الألمانية إلى قادة الفكر من غير رجال الدين في ألمانية ، حثهم فيه على الشروع في إصلاح الكنيسة بأنفسهم دون الاعتماد على رجال الكنيسة[٢١] . وقد أنكر فيه سلطة البابا ودخل في إصلاح جذري للكنيسة القائمة . وعند قيام لوثر بإحراق قرار الحرمان علناً في ساحة فتينبيرغ في كانون الأول ١٥٢٠ م قطع كل صلة تربطه بالكنيسة فطلب البابا من الإمبراطور شارل الخامس ١٥١٩ - ١٥٥٥م الاقتصاص من لوثر وتنفيذ قرار الحرمان . فعقد الإمبراطور مجمعاً في فورمز Diet of Worms الديت الإمبراطوري في كانون الثاني ١٥٢١ لمناقشة لوثر والطلب منه التراجع عن ما كتبه ، إلا أن لوثر امتنع عن ذلك فصدر قرار فورمز بطرد لوثر وإهدار دمه . فالتجأ لوثر إلى قلعة فارتبورغ Wartburg تحت حماية فريدريك الثالث أو العاقل دوق سكسونية ، ومؤسس جامعة فتينبيرغ وبقي هناك لمدة عام عمل خلال ذلك على ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة الألمانية حيث جعل منه كتاباً شعبياً . ثم عاد إلى فتينبيرغ في عام ١٥٢٢م حيث تزوج وبقي فيها حتى وفاته عام ١٥٤٦ م يعمل على تنظيم الجماعات التي آمنت بعقيدته ومبادئه[٢٢] .

لقد ساعدت الظروف السياسية في المانية على انتشار الحركة اللوثرية ، إلا أن الظروف الاقتصادية والاجتماعية هناك جعلت الحركة تأخذ في مسارها اتجاهات معينة. فقد رأى بعض الألمان في الحركة فرصة لتنفيذ الأراء التي يؤمنون بها وقد شجعتهم الحركة اللوثرية على المجاهرة بها . وقد رأى قسم آخر منهم أن الفرصة مواتية لتحسين أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية فلجؤوا إلى العنف ، وانقلبت

الحركة الإنسانية وبصورة الإنجيلية المعتدلة المستوحاة من إيرازموس ولوفيفر ديتابل Lefever d'Etaples . وقد كون الأسقف برسيونة Briconnet في أسقفية في مو Meaux بالقرب من باريس فريقاً ضم عدداً من رجال الـ ن من . س ضم لوفيفر ديتابل وهدف إلى إعادة روح الإنجيل الأولى إلى الكنيسة . قد كان لوفيفر دتيابل أستاذاً في كلية الكاردينال لوموان في باريس وناشراً ومفسراً ومترجماً للكتب المقدسة وللفلاسفة القدماء[٣٤] . وقد فهم أفكار لوثر فهماً جيداً ، كما توصل إلى مفهوم ايرازموس الذي يرمي إلى مسيحية إنجيلية متقيدة بتعاليم الإنجيل . وقد كان يرى أن هذا الإصلاح سيتحقق بصورة تدريجية وبمساعدة السلطة الملكية وأن يتم فرضه على روما دون قطيعة . ولم يكن الملك فرانسوا الأول معاكساً لهذا الاتجاه ضمنياً ، بسبب تأثير أخته مارغريت دانغوليم ، التي حمت حركة الإصلاح آنذاك وبسبب ميوله الشخصية وكذلك بسبب سياسته العامة ، فقد كانت علاقته مع البابا والبروتستانت منوطة بنزاعه مع شارل الخامس . أما هنري الثامن بن فرانسوا الأول فعلى الرغم من تأثره بالكاثوليكية فقد بقي محافظاً على سياسة التحالف مع البروتستانت حتى عام ١٥٥٩م . ويمكن تمييز دوران لتاريخ الإصلاح الديني في فرنسة قبل الحروب الدينية . يمتد الدور الأول حتى عام ١٥٣٤م ويتصف بحركة إصلاحية سلمية قام بمساعدتها كل من الملك والبلاط ، أما في الدور الثاني الذي بدأ منذ عام ١٥٣٤ م فقد أخذت النزاعات الجذرية تسيطر على حركة الإصلاح وأصبح الملك أكثر استعداداً للاضطهاد واشتد هذا الميل عنده حتى آخر حكمه . فقد انتشرت حركة الإصلاح منذ عام ١٥٢٠م بين مختلف الأوساط المدنية والعمال والبرجوازية ، حيث قام الكهان والرهبان بالتبشير بها ، وانتقلت أفكار لوثر إلى كل مكان ، إلا أن كلية باريس الدينية قامت بمقاومة هذه الحركة . وصدر أمر ملكي في آذار ١٥٢١م أيده قرار من البرلمان في حزيران نص على عدم طبع أو نشر أي كتاب أو منشور دون الحصول على إذن مسبق، وحكم على أفكار لوثر بالبطلان وحرق الكثير من آثار الإنسانيين ، وقد أقر برلمان باريس في آذار ١٥٢٥م نوعاً شبيهاً بمحكمة التفتيش تألفت من عضوين من أعضائه وعضوين من كلية اللاهوت وتمتعت بصلاحيات واسعة في جميع الأسقفيات . وقد بدأ الاضطهاد بشكل واسع على أثر قضية المناشير التي بدأ رجال الإصلاح

بإلصاقها على جدران باريس وعدد من المدن الفرنسية الأخرى وقد تضمنت هذه المناشير هجوماً عنيفاً على الصلاة الكاثوليكية ١٥٣٤م ، وأُلصق قسم من المناشير على باب غرفة الملك فما كان من السلطة السياسية إلا أن شرعت بالبطش بهم فتفرقت جماعة (مو) وفر اللوثريون ومن بينهم المصلح الفرنسي كالفن . فقد أقر الملك بتشكيل لجنة في البرلمان مؤلفة من ١٢ مستشاراً من أجل محاكمة الهراطقة . إلا أن علاقات الملك مع عصبة شما لكد Schmalka League ومحاولته التوفيق بين البروتستانت الألمان ، اضطرته إلى التساهل مع أنصار الإصلاح في فرنسة لذا فقد أصدر مرسوماً في تموز ١٥٣٥ م بالعفو عمن يرتد عن دينه الجديد خلال ستة أشهر . وقد أخفقت حركة الإصلاح المعتدلة على يد لوفيفر ديتابل ولكن حركة الإصلاح أخذت شكلاً أصيلاً على يد كالفن .

الكالفينية :

ولد جون كالفن Joh Galvin في بلدة نويون Nayon بالقرب من باريس ١٥٠٩م ، قام بدراسة علم اللاهوت في جامعة باريس والحقوق في بورج . درس آراء المصلحين وعلى رأسهم مارتن لوثر ، وقاد حركة إصلاح في فرنسة[٣٥] . اعتزل وظيفته الدينية عام ١٥٣٤م وغادر فرنسة إلى ستراسبورغ بسبب اضطهاد الملك فرانسوا الأول للبروتستانت وتنقل بين عدة مدن واستقر في سويسرة عام ١٥٣٦م ، وهناك أصدر كتابه المشهور مؤسسة الدين المسيحي Institues Of Christian الذي تضمن خلاصة التعاليم البروتستانتية وقد اتفق كالفن مع لوثر من حيث الاعتماد على الكتاب المقدس وحده في جميع المسائل الدينية ، وأن المسيح وحده هو الذي يشفع للعباد عند الله ، وأن التبرير يكون بالإيمان وليس بالأعمال فالإنسان غير قادر على إنقاذ نفسه . والإنقاذ يأتي من الله وحده . فهو الذي يقدر لكل واحد الخلاص والهلاك لأسباب لا نعرفها . وإن الأشخاص الذين قدر لهم الخلاص يتلقون الإيمان بوساطة المسيح ومن واجبهم طاعة الشريعة المقدسة والكنيسة التي يديرها الرعاة ، تكون مستقلة عن السلطة السياسية وتقوم بالحكم بشكل حازم ولا يوجد تسلسل بالمراتب الذي يوجد في الكنيسة الكاثوليكية . وقد اختلف كالفن مع لوثر في مسالة الغفران فقد رأى كالفن بأن الغفران من الأمور القدرية التي لا ترتبط بالأعمال وبذلك

يكون كالفن قد آمن بفكرة القضاء والقدر اكثر مما اعتقد بها لوثر - مبدأ القدرية Predestination - وكذلك اختلف المصلحان في موقف كل منهما من المجتمع والدولة[٣٦] . فقد رفض كالفن الاعتراف بخضوع الكنيسة للدولة أو بحق أي سلطة مدنية في سن تشريعات دينية ، بل على العكس فقد تطلع كالفن إلى إقامة مجتمع يصف أهله بصفات القديسين وتكون واجبات الملوك فيه خدمة الدين وبذلك كانت إحدى نتائج الكالفنية تقوية روح الاستقلال والحرية وبخاصة عند الرأسماليين ، بينما كانت تقوية سلطة الأمراء من أهم نتائج اللوثرية التي أعطت الأمراء فرصة مصادرات لأملاك الكنيسة وفرض دينهم على رعاياهم .

وقد استدعت جنيف البروتستانتية كالفن فأقام بها نهائياً منذ عام ١٥٤١م ، حيث بقي هناك حتى وفاته ١٥٦٤ م . وقد أصدر فيها (أوامره الكنيسية) التي فرضت أخلاقاً صارمة على المدنية[٣٧] ، فأقام نموذجاً لمجتمعه المسيحي ، حيث تم تأسيس هيئة من رجال الدين (مجلس الرعاة) لحكم المدينة . كما وجد هناك مجلس مثل السلطة المدنية والبرجوازية ، إلا أن هذا المجلس اضطر وبالتدريج بالتقيد بمطالب مجلس الرعاة . وكان الحكم صارماً حيث تتم محاسبة المسيء بالإضافة إلى ذلك فقد منع كالفن المسرح والرقص والألعاب كما تمت إزالة صور القديسين والعذراء والمسيح واستبدل بالغناء والتراتيل ومنع استعمال الموسيقى في الكنائس .

وقد أسس تيودور دوبسيز Theodorde Beze ١٥١٩ - ١٦٠٥ م أكاديمية في جنيف هدفها تخريج الرعاة المبشرين ، الذي يتم إرسالهم إلى جميع أنحاء أوربة من أجل بث عقيدة كالفن . ويمكن القول أخيراً إن الكالفينية كانت أعمق أشكال الإصلاح البروتستانتي تأثيراً وأكثرها انتشاراً ، حيث انتشرت في فرنسة وسويسرة وغربي ألمانية والأراضي المنخفضة وبوهيميا وهنغارية وبولونية .

الإصلاح في البلاد المنخفضة :

كانت الأراضي المنخفضة تابعة لإسبانية ، وقد تم اعتناق سكانها البروتستانتية البيعة لقناعة دينية وبسبب صلة البرجوازية بآراء ايرازموس ، بالإضافة إلى أن البروتستانتية كانت وسيلة لمقاومة الحكومة الإسبانية التي كانت في نزاع سياسي وإداري مع البرجوازيين والنبلاء هناك .

الإصلاح في سكوتلاندة (ايكوسيا) :

انتشرت الكالفينية في ايكوسيا على يد تلميذ كالفن جون نوكس ١٥٠٥ - ١٥٧٢م وقد شجعت مجموعة من الأسباب السياسية والاجتماعية نفوذ الإصلاح إلى إيكوسيا فقد ناوأ النبلاء الإيكوسيون المصلحون الملكة الوصية على العرش ماري غيز الفرنسية بعد قتل جاك الخامس ١٥٤٢م ، وكان جيمس ستيوارت ابن جاك الخامس على رأس هؤلاء النبلاء الذين طمعوا بالإضافة إلى ذلك بأملاك الكنيسة الكبيرة ، ورغبوا في وضع أيديهم على أموالها ، وقد اتفقوا على ذلك عام ١٥٥٧م .واعترف البرلمان في عام ١٥٦٠م رسمياً بالإصلاح بعد وفاة الوصية دون الاكتراث بعواطف ابنتها الملكة ماري ستيوارت ، التي كانت في فرنسة وتزوجت الملك الفرنسي فرانسوا الثاني بن هنري الثاني . وقد تم تنظيم الكنيسة الايكوسية الجديدة التي سميت بالكنيسة البريسبتيريانية Presbyterienne وفقاً لكنيسة جنيف ، إلا أنها عرفت باسم الكنيسة المشيخية وقام بإدارتها مجلس من الرعاة[٣٨] الشيوخ .

الإصلاح الديني في انكلترة :

كانت إنكلترة مهيأة لقبول أفكار الإصلاح منذ محاولات وايكليف الإصلاحية في القرن الرابع عشر . وكانت إنكلترة مثل ألمانية تشكو منذ فترة طويلة من متطلبات البابوية المالية ومن سلطات البابوية الواسعة هناك والوسائل التي استخدمتها لأخذ الأموال ومن تدخلها في شؤون البلاد الداخلية . فقد كونت الكنيسة ثروة ضخمة وانعدم الشعور الديني عند رجال الدين ، الذين استولوا على ثلث أراضي الدولة بحكم حق الإشراف على الأراضي المرهونة للكنيسة والأديرة وانتشرت المفاسد في كل مكان. وإذا كان الإصلاح الديني في كل من ألمانية وسويسرة وفرنسة قد تم على يد رجال مفكرين فإن الملك نفسه قام بالإصلاح في انكلترة ولأسباب شخصية[٣٩] . فعندما عزم هنري الثامن ١٥٠٩ - ١٥٤٧م على تطليق زوجته كاترين الأرغونية Catherine Of Aragon ابنة فرديناند وايزابيلا وخالة شارل الخامس والزواج من آن بولين Anne Boleyn . وقد طلب هنري الثامن من البابا كلمنت السابع إلغاء زواجه من كاترين إلا أن البابا احتفظ بجوابه لمدة طويلة ، ربما لخضوع البابا آنذاك للإمبراطور